

صور الآخر: (العدوّ) في شعر الفرسان في العصر الجاهلي

صور الآخر: (العدوّ)

في شعر الفرسان في العصر الجاهلي

الباحث/أحمد عبيد عبد الله

قسم الأدب والبلاغة والنقد - كلية اللغة العربية

مدخل:

يخوض الشاعر مع عدوه منافسة شديدة متباينة الفصول على كافة الأصعدة فمرة يقارعه بالسنان ومرة يفحمه بالبيان، ولا يزال يصول وإياه ويجول في معارك من هذين القبيلين، شأن تلك الحياة التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي، فللشعر معتركه الذي لا تقلّ المقارعة فيه وخوض غماره عن ميدان الحرب، بل هو نوع آخر من الحرب، على الشاعر الفارس خوضها هجوماً على العدوّ ولذعه بسياط الهجاء وسليط اللسان تارة، ودرعا منيعاً دفاعاً عن نفسه أو عن قبيلته وقومه تارة أخرى، يقول عنتره<sup>(١)</sup>:

وأطعن في الهيجا إذا الخيل صدها  
سيأتيكم عني وإن كنت نائياً  
قصاد من قيل امريء يحتديكم  
ويقول في موضع آخر<sup>(٢)</sup>:

غداة الصباح السمهري المقصد  
دخان العلندي دون بيتي مذود<sup>(٣)</sup>  
بني العشراء فارتدوا وتقلدوا

وأحمي حمي قومي على طول مُدتي  
فدونكم يا آل عيس قصيدة  
إلى أن يروني في اللفائف أدرج  
يلوح لها ضوء من الصبح أبلج

وكما أن دفاع الفارس للعدو قد يكون عن نفسه أو فرداً من قبيلته أو القبيلة كلها، كذلك قد تكون العداوة من فرد أو أفراد، أو حتى قبيلة، بَعْدَ النسب في كل أولئك أو قُرب؟؟ فهكذا هي وظيفة الشاعر الفارس، أن يقف أحياناً مدافعاً عن نفسه أو عن حبيبته مناضلاً عنها، وحيناً عن قبيلته وقومه، ومرة أخرى مع عنتره وهو يدافع عن نفسه فيمن يعيره بالسواد<sup>(٤)</sup>:

(١) شرح ديوان عنتره بن شداد، الخطيب التبريزي، (ص ٥٣)

(٢) العلندي: شجر من العضاة ولا شوك له، واحده علندة. أي منابت العلندي بيني وبينكم. أي سيأتيكم مذود بذودكم، يعنى الهجاء. المحكم والمحيط الأعظم (١٧/٢).

(٣) شرح ديوان عنتره بن شداد، الخطيب التبريزي، (ص ٤٢)

(٤) المصدر السابق (ص ٧٩)

أ/ أحمد عبيد عبد الله

سوادى بياض حين تبدوا شمائلي

وقال فى موضع آخر<sup>(٥)</sup>:

وما عاب الزمان على لوني

ويقول فى آخر<sup>(٦)</sup>.

وفعلى على الأنساب يزهو ويفخر

ولا حظ السواد رفيع قدرى

فألد يستره ثوب من الصدف

وإن يعيبوا سواداً قد كسيت به

إنها محاجة للدفاع عن النفس، لهجمات العدو الذى لا يزال يتربص ويبحث عن أي مثلبة أو عيب، ولا يبالي نقطة ضعف أو نقص ظفر، فهدفه التقليل من شأن الآخر، وإذلاله وهزّ شموخه، وسلبه كل فضيلة، والباسه كل رذيلة، وهو هنا لم يجد ما يعيب به الفارس الشاعر الشجاع إلا سواد لونه، تلك الصفة التى لا تقدح بالشاعر الفارس، ولا قبل له بدفعها أو تغييرها، فيدافع عن نفسه بأنّ السواد لا يضاد المكارم، ولا ينافى الجمال، فكم من درة السواد وتترعرع فى كنفه، ثم لا يسلبها ذلك رونقها ولا يذهب بريقها ولا يحطّ من جمالها وسحرها.

وبما أن العنف طابع على ردود الفعال للعداء الجاهلى، فقد كان خوض الحروب والحديث عن ميادينها هو المظهر الأبرز تتاولاً وتداولاً فى شعر الفرسان، أكثر من غيره من حلقات العداوة وتدرجاتها، ولذا غلب الطابع على الأمثلة التالية، وجاء الحظ الأوفر مناه من نصيب الفارس الأبرز فى هذا المجال، عنتر بن شداد. والذى تجاوز تطلّعه لخوض غمار الحروب ومقارعة الأبطال، وإدراك ثأره من أعدائه، أن بلغ به الأمر إلى جعل ذلك أحد الأهداف التى يرتجى المزيد من الإمهال لتحقيقها، ويحمل الهم الأكبر خشية من تخرم المنية له دونها، إذ يقول<sup>(٧)</sup>:

للحرب دائرة على ابنى ضمضم

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر

والناذرين إذا لم ألقيهما دمي

الشاتمي عرضى ولم أشتمهما

وفى أبيات مماثلة يوصي بملاحقة عدوه الذى تمّنع منه واحتمى بالمرتفعات

والشعاب مستبعداً إدراك ثأره، رغم تحميله دمه والوصية بإدراك الثأر منه، فيقول<sup>(٨)</sup>:

(٥) المصدر السابق (ص ٨٣).

(٦) المصدر السابق (ص ١٠٣).

(٧) شرح ديوان عنتر بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص ١٨٦).

(٨) نفس المصدر (ص ١٤٢).

صور الآخر: (العدوّ) في شعر الفرسان في العصر الجاهلي

وهيئات لا يرجى ابن سلمى ولا دمي

مكان الثريا ليس بالمتهم

عشية حلوا نغف ومخرم

وإن ابن سلمى فاعلموا عنده دمي

يحل بأكناف الشعاب وينتمي

رمانى ولم يدهش بأزرق لهزم

ويأتى بإزاء الحرب بالسيف ضمن ردود أفعال العداء حرب على صعيد آخر تتمثل في هجاء الخصوم بذكر مساوئهم وتعداد قبائح صفاتهم، مع مبالغة وتقزيم مוגل قصده الحط من قدر العدوّ بأكبر قدر ممكن، وتشويه صورته بما لا دَمَ فوقه، إمعاناً في إذلاله وإهانته، بوصمه الصفات الأكثر قبحاً في المجتمع الجاهلي: كالجبن، والغدر، والكذب، وتعريته من الصفات الممدوحة، كالكرم والوفاء... الخ.

وتكمن خطورة هذه الحرب الإعلامية ونكايتها وأهميتها في الوقت ذاته، في كون تلك الصفات التي يوصم بها المهجّو ستداولها الألسن، على نطاق القبائل وتنتشر على ألسنة الأفراد، وتتشد في المجامع والأندية، فتعير بها تلك القبيلة، أو فرد من أفرادها، مما يخرم مكانتهم، ويهزّ كيان مجدهم، ويشوّه صورتهم الاجتماعية ويخرم مرؤتهم في الأذهان على نطاق واسع، لا رتق له، فيا لها من نكاية في العدوّ أى نكاية..

صور العدوّ الهَيَاب الجبان وردود أفعاله:

نستهلّ هذه الصور بصورة رسمها لنا الشاعر مهلهل بن ربيعة يتباهى فيها بعدم خشيته للنزال والمبارزة في حين يهاب عدّوه ذلك، فيقول مفاخرة لعدّوه متحدياً له، وكأنه يتبختر في ساحة المعركة وحيداً ينادى من يبارز، وأعداؤه واجمون وجلون خائفون، لا يتجرأ منهم أحد لنزاله، يقول<sup>(٩)</sup>:

وأخو الحرب من يطيق النزولا

لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا

ويهجو قيس بن الخطيم أعداءه، ويصفهم بالفرار أمام قومه، ويتوعددهم بالملاحقة، وعدم سلامتهم حتى بالفرار، فيقول<sup>(١٠)</sup>:

ويأبى جمعنا إلا ورودا

ويأبى جمعكم إلا فرارا

إلى أن قال:

وحد ظباتها إلا شريدا

فما أبقت سيوف الأوس منكم

(٩) ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح: طلال حرب، (ص ٦٣).  
(١٠) ديوان قيس بن الخطيم، ت: ناصر الدين الأسد، (ص ١٤٩).

أ/ أحمد عبيد عبد الله

فلن ننفك نقتل ما حيننا

رجالكم ونجعلكم عبيدا

ويصور لنا عنتره صورة عدوه فاراً هارباً حيناً يضطره اشتداد القتال أو مقدماته إلى  
النزول عن فرسه، فيقول<sup>(١١)</sup>:

إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا  
أشدد، وإن يلفوا بضنك أنزل  
حين النزول يكون غاية مثلنا  
ويفر كل مضلل مستوهل<sup>(١٢)</sup>

فالعُدو الخائف الوجل لا تحمله أرجله على الثبات على أرض الوغى، بينما تطير به  
هرياً!!

وفى لغة متعالية متباهية يخاطب عدوه الجبان، بأننى ألقى كتيبة كاملة بمفردى،  
فأبادلها الطعان، حتى أتغلب عليها، فدعنى وهذا الشأن فأنا وأمثالي من الرجال أهله، لا  
أمثالك من المذعورين، الوجلين الخائفين، يقول<sup>(١٣)</sup>:

وإذا لقيت كتيبة طاعتها  
وسلبتها يوم اللقاء عقابها  
فأذهب فأنت نعامه مذعورة  
ودع الرجال قتالها وسبابها

وبأوصاف مهينة غاية فى الهجاء والاستخفاف والهزء بعدوه، حين سمع بتوعدّه له،  
وبسخريّة يطلب منه أن يقابله منفرداً ليدلل على صدق شجاعته، ثم يتهم بوصفه بصفات  
الجبن ويذكره بما عهده عليه أو يتوقعه منه، من ظهور علامات الخوف كرجفان الإليتين  
واضطراب أطرافها، وما يصاحب ذلك من هلع وجزع يكاد يُطيره هرياً، فيقول<sup>(١٤)</sup>:

أحولى تنفض استك مذروبيها<sup>(١٥)</sup>  
لتقتلى فها أنذا عمارا  
متى ما نلتقى فردين ترجف  
روانف<sup>(١٦)</sup> إليتيك وتستطارا

ثم ها هو يصوّر لنا مطاردة عدوه الجبان بعد أن جرحه ذلك العدو فى وجهه، وهو  
يقول له اصبر لا تفرّ، بعد أن تركت أثراً فى وجهى، أغرّك أن جرحتى، فهكذا يجرح الكرام

(١١) شرح ديوان عنتره بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص ١٢٦).

(١٢) مستوهل: فزع. أساس البلاغة (٢/ ٣٥٨).

(١٣) شرح ديوان عنتره بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص ٢٤).

(١٤) المصدر السابق (ص ٦٩).

(١٥) مذروبيها: جانبها.

(١٦) روانف: أطراف.

صور الآخر: (العدو) في شعر الفرسان في العصر الجاهلي  
الشجعان في وجوههم مقبلين, لا كالجبناء الذين لا يصابون إلا في ظهورهم مدبرين,  
فيقول<sup>(١٧)</sup>:

أصبر حصين لمن تركت بوجهه  
ما سرنى أن القناة تحرفت  
إن الكريم ندوبه في وجهه  
لكن في أكتافهم ونحورهم  
العدو الشجاع وذو المكانة:  
أثراً فإني لا أخالك تصبر  
عما أصابت من حجاج المحجر  
وندوب مرة لا ترى في المنحر  
فبذاك فافخر ببس ذاك المفخر

من شأن الأبطال الشعراء أن يصفوا أعداءهم بالشجاعة, وليس ذلك لتحري الصدق  
والإنصاف بقدر ما هو تنويه بشجاعة أنفسهم؛ إذ لا يغلب الشجاع إلا الأشجع منه, ولا يكر  
عليه ويهاجمه إلا بطل مغوار لا يبالي في إقدامه أي الخطوب اقتحم.  
يقول الشنفرى, وهو يصف معركة خاطفة شنها بمن معه من فرسان الصعاليك على  
أعدائهم الذين ثاروا عليهم في هجوم حام, فيقول<sup>(١٨)</sup>:

فثاروا إلينا في السواد فهجهجوا  
فشن عليهم هزة السيف ثابت  
وظلت بفتيان معى أتقيهم  
وقد خر منهم راجلان وفارس  
وصوت فينا بالصباح المثوب<sup>(١٩)</sup>  
وصمم فيهم بالحسام المسيب<sup>(٢٠)</sup>  
بهن قليلاً ساعة ثم خبيوا  
كمي صرعناه وخوم مسلب<sup>(٢١)</sup>

ويصور في موضع آخر مصرع عدوه على يديه, ويصفه بالفارس المستبسل, فيقول  
:<sup>(٢٢)</sup>

ومستبسل ضافى القميص ضمته  
وينقل لنا صورة ثأرهم وانتقامهم من عدوهم بقتل خير فرسانهم, فيقول<sup>(٢٣)</sup>:  
بأزرق لا نكس ولا متعوج  
يزيد وسعداً وابن عوف بمالك  
قتلنا بعمر ومنهم خير فارس

(١٧) شرح ديوان عنتر بن شداد, الخطيب التبريزي, (ص ٧٤).  
(١٨) ديوان الشنفرى, ويلييه ديوان السليك, طلال حرب, (ص ٣٤).  
(١٩) السواد: الليل, هجهجوا: صاحوا, المثوب: الداعي المكرر للنداء.  
(٢٠) ثابت: يقصد تأبط شراً.  
(٢١) الكمي: البطل الشجاع, الوخوم: الرجل الثقيل.  
(٢٢) ديوان الشنفرى, ويلييه ديوان السليك, طلال حرب, (ص ٤٢).  
(٢٣) ديوان الشنفرى, ويلييه ديوان السليك, طلال حرب, (ص ٥٤).

أ/ أحمد عبيد عبد الله

ظللنا نغري بالسيوف رؤوسهم

ونرشقهم بالنبل بين الدكادك

وها هو تأبط شراً يصور مصرع أحد أعدائه الفرسان ونوح النساء عليه وهو يلفظ  
أنفاسه، وهن يذكرنه ما كان عليه من الإباء والشجاعة، فيقول<sup>(٢٤)</sup>:

ويوم أهر السيف في جيد أعيد له نسوة لم تلق مثلى أنكرا

ينحن عليه وهو ينزع نفسه لقد كنت أباة الظلامه قسورا

ونجد عنتره بن شداد يسجل لنا وصف عدوه بالشجاعة في قوله<sup>(٢٥)</sup>:

سأحمل بالأسود على أسود وأخضب ساعدى بدم الأسود

فهو هنا يصور عدوه كالأسد، ولم يمنعه ذلك من الحمل عليه والهجوم بمن معه من  
قومه واصفاً إياهم بالأسود، وهو في مقدمتهم، يضرب في العدو طولاً وعرضاً حتى يتخضب  
ساعده بدماء أولئك الأعداء، فلم ينجهم كونهم أسوداً من بطشه واستئساده.

ويصور لنا عدواً آخر مدجج بالسلاح ينازله وهو ثابت الجنان، أبى لا مطمع في  
استسلامه، فأحرى بهر به، مما جعل الفرسان تهابه، وتتجنب نزاله، يقول<sup>(٢٦)</sup>:

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هرباً ولا مستسلم

جادت يداي له بعاجل طعنة بمثقف صدق القناة مقوم

وفى صورة أخرى لمواجهة حامية مع عدو شجاع وبطل مقدم، نال وسام الفروسية  
(حامى الحقيقة) لا ترهبه المواجهة بل يكشر لها عن أنيابه فى صورة تغري خصمه بأنها  
كالتبسم استدراجاً له إلى حتفه، إلا أن كل تلك الصفات لم تصمد أمام فارسنا ورمحه المعزز  
بسيفه المهند، يقول<sup>(٢٧)</sup>:

ومشك سابغة هتكت فروجها عن حامى الحقيقة معلم<sup>(٢٨)</sup>

ربذ يداه بالقداح إذا شتا هتاك غايات التجار ملوم<sup>(٢٩)</sup>

لما رأني قد نزلت أريده أبدى نواجذه لغير تبسم

<sup>(٢٤)</sup> ديوان تأبط شراً وأخباره، ت: على ذو الفقار، (ص ١٠٠).

<sup>(٢٥)</sup> شرح ديوان عنتره بن شداد، الخطيب التبريزي، (ص ٦٥).

<sup>(٢٦)</sup> شرح ديوان عنتره بن شداد، الخطيب التبريزي، (ص ١٧٣).

<sup>(٢٧)</sup> المصدر السابق، (ص ١٧٥).

<sup>(٢٨)</sup> المشك: الدرع، وقيل: المسامير فى حلق الدرع.

<sup>(٢٩)</sup> ربد: السريع، القداح: السهام، التجار: الخمارون.

صور الآخر: (العدو) في شعر الفرسان في العصر الجاهلي  
 فطعنته بالرمح ثم علوته  
 بمهند صافى الحديدة مخذم<sup>(٣٠)</sup>  
 عهدي به شد النهار كأنما  
 خضب اللبان ورأسه بالعظم<sup>(٣١)</sup>  
 بطل كأن ثبابه في سرحة  
 يحذى نعال السبت ليس بتوأم<sup>(٣٢)</sup>  
 ويصور لنا نهاية معركته وتغلبه على أحد الأقران الأبطال، فيقول<sup>(٣٣)</sup>:  
 ولرب قرن قد تركت مجدلاً  
 ولبانه كنواضح الجريال  
 تنتابه طلس السباع مغادراً  
 في قفرة متمزق الأوصال

وكما أسلفنا فوصف العدو بالبطل، وغيره من أوصاف الشجاعة ليس إلا إشارة عكسية تصب في إضفاء الشاعر الفارس على نفسه الوصف نفسه بحجم أكبر بحكم التغلب والنصر لا من باب الإنصاف أو الاعتراف بالفضل للآخر العدو. وينقل لنا عمرو بن كلثوم، صورة لعدو كان قومه قد توجهوا ملكاً عليهم ليحميهم، حتى أغار عليه هو وقومه، فهزموه، وتركوا الخيل عاكفة على جثمانه في أرض المعركة، فيقول<sup>(٣٤)</sup>:

وسيد معشر قد توجه  
 بتاج الملك يحمي المحجرين  
 تركنا الخيل عاكفة عليه  
 مقلدة أعتها صفونا

ويصور عنتر بن شداد، كيف غادر فارساً مغوراً وهو مجدل متعفر الأوصال بالتراب ولم تتفحه ثقته وغروره بنفسه، ولا مهارته في استخدام السيف، فيقول<sup>(٣٥)</sup>:  
 غادرته متعفراً أوصاله  
 والقوم بين مجرح ومجدل  
 فيهم أخو ثقة يضارب نازلاً  
 بالمشرفي وفارس لم ينزل  
 وينقل لنا في أبيات أخرى مدى نكايته في عدوه وخسارتهم بسبب قتله لفارسهم مع آخرين من أعيانهم، فقال مفتخراً<sup>(٣٦)</sup>:

ولقد نكبت بنى حريقة نكبة  
 لما طعنت صميم قلب الأخيل<sup>(٣٧)</sup>

<sup>(٣٠)</sup> مخذم: قاطع.

<sup>(٣١)</sup> العظم: صبغ أحمر.

<sup>(٣٢)</sup> سرحة: الشجرة، تحذى: تلبس، نعال السبت: النعال المدبوغة.

<sup>(٣٣)</sup> شرح ديوان عنتر بن شداد، الخطيب التبريزي، (ص ١٣٢).

<sup>(٣٤)</sup> ديوان عمرو بن كلثوم، ت: د. إميل بديع يعقوب، (ص ٧١).

<sup>(٣٥)</sup> شرح ديوان عنتر بن شداد، الخطيب التبريزي، (ص ١٢٢).

<sup>(٣٦)</sup> المصدر السابق، (ص ١٣٤).

<sup>(٣٧)</sup> النكبة: المصيبة، الأخيل: المتكبر.

أ/ أحمد عبيد عبد الله

وقتلت فارسهم ربيعة عنوة

وابنى ربيعة والحريش ومالكاً

وبتعبير ساخر يصور لنا كيف ينتهك رمحه الطويل حرمة الكريم من أعدائه بلا

تورع ولا مبالاة بمنزلته<sup>(٣٨)</sup>:

ليس الكريم على القنا بمحرم<sup>(٣٩)</sup>

فشككت بالرمح الطويل ثيابه

ويقول فى موضع آخر أن من عادته أن يجعل من بطون الأبطال كنانة لنبله،

تهويلًا وتباهياً وترهيباً لعدوه، أن لا رادع له من بطل ولا فارس، فأحرى من دونهم ..

يقول<sup>(٤٠)</sup>:

يكون جفيها<sup>(٤٢)</sup> البطل النجيد<sup>(٤٣)</sup>

وهل يدرى جرية<sup>(٤١)</sup> أن نبلى

وها هو أيضاً يصف تركه لزوج غانية صريعاً على أرض المعركة، فيقول<sup>(٤٤)</sup>:

تمكو فريصته كشدق الأعم

وحليل غانية تركت مجدلاً

ورشاش نافذة كلون العندم

سبقت يداي له بعاجل طعنة

ويكمن الفخر بالتغلب على من هذا وصفه (حليل غانية) ما يغلب على من هذه

حاله من العزة والأفنة والتتعم... الخ.

وفى صورة أخرى يصف كيف يبىيت متسلحاً برمحه، يحذر غارة للأعداء الأشداء،

الذين يشبهون الغول خفة وبسالة وتسلحاً برماحهم الطويلة، ورغم ذلك فهو فى انتظارهم

ليعالجهم برمحه ويرويه من دمائهم، فيقول<sup>(٤٥)</sup>:

أسنتها من قاني الدم تردم

برح بالعينين كل مغيرة

برمحي حتى بل عامله الدم

أمارس فيها ابني قشير كليهما

سعالى بأيديها الوشيح المقوم

أمارس خيلاً للهجوم كأنها

<sup>(٣٨)</sup> شرح ديوان عنتر بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص ١٧٤).

<sup>(٣٩)</sup> شككت: (ويروى: كمشت) أي شققت، أو رفعت ثيابه لما طعنته.

<sup>(٤٠)</sup> شرح ديوان عنتر بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص ٥٢).

<sup>(٤١)</sup> جرية: اسم رجل.

<sup>(٤٢)</sup> الجفير: الكنانة.

<sup>(٤٣)</sup> الشجاع ذو النجدة.

<sup>(٤٤)</sup> شرح ديوان عنتر بن شداد، الخطيب التبريزى، (ص ١٧٠).

<sup>(٤٥)</sup> نفس المصدر، (ص ١٣٩).



صور الآخر: (العدو) في شعر الفرسان في العصر الجاهلي

صور العدو المنهزم:

يصف عمرو بن كلثوم، ما آلت إليه جماجم أعدائه، ويشبها بأحمال الجمال، الملقاة في فلاة كثيرة الحجارة، ويصور مدى حيرة العدو فيم يحذر، وأى شيء يتقى، فهو مهدد بالسيوف والرماح من كل جانب، يقول<sup>(٤٦)</sup>:

بسم من قنا الخطي لدن  
نشق بها رؤوس القوم شقاً  
كان جماجم الأبطال فيها  
ورثنا المجد قد علمت معد  
ونحن إذا عماد الحي خرت  
نجد رؤوسهم في غير بر  
نوابل أو ببيض يعتلينا<sup>(٤٧)</sup>  
ونخليها الرقاب فتختلينا  
وسوق بالأماعز يرتميننا<sup>(٤٨)</sup>  
نطاعن دونه حتى يبيننا<sup>(٤٩)</sup>  
عن الأحفاض نمنع من يلينا<sup>(٥٠)</sup>  
فما يدرون ماذا يتقوننا<sup>(٥١)</sup>

ويرسم عنتره صورة مرعبة لأعدائه المغرورين، وهم يقعون فريسة سهلة للنهب والسلب، إنه يتركهم جثثاً هامدة للكواسر والوحوش، ويغادرهم وأموالهم منهوبة ومقسمة بين الناس، فيقول<sup>(٥٢)</sup>:

إذا التقيت الأعادي يوم معركة  
لي النفوس وللطير اللحوم ولد  
تركت جمعهم المغرور ينتهب  
وحش العظام وللخيالة السلب

وفى موضع آخر يصور ديارهم بأن لا أنيس فيها، فهي خالية يخيم عليها الهدوء، من كل مظاهر الحياة الإنسانية؛ ولم تعد آهلة بالناس، فأصبح أهلها الغربان والذئاب والنمور، ويفتخر بأنه سبب كل ذلك الدمار، فيقول<sup>(٥٣)</sup>:

ما خالد بعدما قد سرت طالبه  
ولا ديارهم بالأهل آنسة  
بخالد لا ولا الجيداء تفتخر  
ياوي الغراب بها والذئب والنمر

(٤٦) ديوان عمرو بن كلثوم، ت: د. إميل بديع يعقوب، (ص ٧٤) وانظر الرؤية للذات والآخر في معلقة عمرو بن كلثوم، أ. د. مؤيد محمد صالح اليوزبكي، آداب الرافدين، العدد (٥٦) ١٤٣١ / ٢٠١٠م (ص ١٧)  
(٤٧) توصف الرماح بالسمره لذبولها، وقنا الخطي: نسبة إلى الخط وهي بلدة كانت على ساحل البحرين تشتهر بصناعة القنا، اللدن: المرنة، البيض: السيوف.  
(٤٨) الأماعز: الأراضي الصلبة، السوق: جمع وسق وهو الحمل.  
(٤٩) يبين: يتضح.  
(٥٠) العماد: جمع عمود، خرت: سقطت، الأحفاض: متاع البيت، يقصد بذلك رحلة الحي للحرب.  
(٥١) الوتر: الثأر، ونجد: نقطع.  
(٥٢) شرح ديوان عنتره بن شداد، الخطيب التبريزي، ص (٢٥).  
(٥٣) نفس المصدر، ص (٨٠)

أ/ أحمد عبيد عبد الله

ويصف تأبط شراً مصرع عدوه على يديه، وكيف غدا ثوبه متشرباً من دمه ومصبوغاً به بالكامل؛ من جراء غزارة نضح عروق عنقه بالدماء، فيقول<sup>(٥٤)</sup>:

دنوت له حتى كان قميصه تشرب من الأخادع عصفراً<sup>(٥٥)</sup>

ويصور لنا عنتره بن شداد، ما خلفوه على أرض المعركة من حطام وما عملوه فى العدو من عمل حين أدبر مولياً ظهره، فتركوا الطير عاكفة على دمائهم، والأجسام لا رفق بها ولا حياة، فيقول<sup>(٥٦)</sup>:

لقد وجدنا زيبداً غير صابرة  
إذ أدبروا فعلنا فى ظهورهم  
وخالد قد تركت الطير عاكفة  
يوم التقينا وخيل الموت تستبق  
ما تعمل النار فى الحلقى فتحترق  
على دماه وما فى جسمه رفق

وفى مشهد آخر ينقل لنا صوراً لنهاية العدو بعد أن باغتهم فارسنا الشاعر فى جمع حافل انحدر عليهم كالمطر المنهمر، فما دهاهم إلا لهيب سيفه الساطع المشتعل، وكيف فر فرسانهم خوفاً منه وفرقاً، وهو يلاحقهم بالطعان كالموت الذى لا مفر لهم منه، حتى أتى على آخرهم، وقفل راجعاً وجماجمهم المتناثرة تتعثر بها فرسه، وقد غدى من فرحه ونشوته بالنصر كما ينتشى الثمل من الشراب، فيقول<sup>(٥٧)</sup>:

سلى فزارة عن فعلي وقد نفرت  
تهز سمر القنا حقداً علي وقد  
يخبرك بدر بن عمرو أننى بطل  
قاتلت فرسانهم حتى مضوا فرقاً  
وعاد بى فرسى يمشى فتعثره  
وقد أسرت سراة القوم مقتدراً  
فى جحفل حافل كالعارض الهطل  
رأت لهيب حسامى ساطع الشعل  
ألقي الجيوش بقلب قُد من جبل  
والطعن فى إثرهم أمضى من الأجل  
جماجم نثرت بالببيض والأسل  
وعدت من فرحى كالشارب الثمل

وفى صورة أخرى، ينقل فيها فعاله بالعدو وكأنها مأدبة يدعو إليها السباع، ويقول لها اتبعيني لرؤية الدماء السائلة بين الربى والرمال، وخذى قوتاً لبنيك من جماجم القوم

<sup>(٥٤)</sup> ديوان تأبط شراً وأخباره، ت: على ذو الفقار، (ص ١٠٢)

<sup>(٥٥)</sup> الأخادع: عرفان فى جانبي العنق. العصفر: نبات صبغى أحمر لونه شبيه بالدم.

<sup>(٥٦)</sup> شرح ديوان عنتره بن شداد، الخطيب التبريزي، ص (١٠٥).

<sup>(٥٧)</sup> نفس المصدر، (ص ١٣٦).

وسأستحق منك بذلك الشكر، وستشهدين بما أنا عليه من الشجاعة، إنها صورة مع بشاعتها إلا أنها عند الأبطال في ذلك المجتمع غاية في الفخر!! يقول فارسنا<sup>(٥٨)</sup>:

يا سباع الفلا إذا اشتعل الحر  
اتبعيني ترى دماء الأعداي  
ثم عودي من بعد ذا واشكريني  
وخدى من جماجم القوم قوتاً

ب اتبعيني من القفار الخوالي  
سائلات بين الربي والرمال  
واذكري ما رأيته من فعالي  
لبنيك الصغار والأشبال

ويسجل لنا الشاعر قيس بن الخطيم صوراً للعدو المنهزم وهم لا يلوون على شيء، ويهربون في كل اتجاه، تاركين صغار الأولاد، ونساؤهم تولول ويتمنين أن لم تحصل هذه الحرب، ويهربن من الهول وقد بدت خلاخلهن حين تطاير عنهن اللباس من جراء الهرب... الخ فيقول<sup>(٥٩)</sup>:

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهم  
أويت لعوف إذ تقول نساؤهم  
صبحناهم شهباء يبرق بيضها

عن السلم حتى كان أول واجب  
ويرمين دفعاً: ليتنا لم نحارب  
تبين خلاخيل النساء الهوارب

ويعبر في موضع آخر، عن تسلط قومه على عدوهم وتكرار غارتهم عليهم، وتسليط السيف عليهم، مما أورثهم ذلاً وصغاراً، وصل بهم إلى الاختفاء بين من حولهم، اختفاءً لا يلحظون معه لقلّة شأنهم، وشدة ذلهم، وكأنهم صغار الإبل في الاختباء بين أمهاتها، لما اعتادوه من التذليل؛ بما ينالهم من القمع والحبس والرد عن أمهاتهم حين الحلب وغيره، فيقول<sup>(٦٠)</sup>:

ظأرناكم بالبيض حتى لأنتم  
رضيت لهم إذ لا يريمون قعرها

أذل من السقبان بين الحلائب<sup>(٦١)</sup>  
إلى عازب الأموال إلا بصاحب

وقال الشنفرى، يصف عدوه باللؤم والذل، ويهزأ من تحذيرهم له<sup>(٦٢)</sup>:

تحذرنى كى أحذر العام خثعما  
وما خثعم إلا لئام أذلة

وقد علمت أنى امرؤ غير مسلم  
إلى الذل والإسحاق تنمى وتنمى

<sup>(٥٨)</sup> شرح ديوان عنتر بن شداد، الخطيب التبريزي، (ص ١٣١).

<sup>(٥٩)</sup> ديوان قيس بن الخطيم، ت: ناصر الدين الأسد، (ص ٩٠).

<sup>(٦٠)</sup> ديوان قيس بن الخطيم، ت: ناصر الدين الأسد، (ص ٩٤).

<sup>(٦١)</sup> السقبان: جمع السقب، وهو ولد البعير الذكر، ويقال للأنثى: حائل، والحلائب: جمع الحلوبة، وهى التى تحلب.

<sup>(٦٢)</sup> ديوان الشنفرى، ويليه ديوان السليك، طلال حرب، (ص ١٠٤).

أ/ أحمد عبيد عبد الله

ويسخر قيس بن الخطيم من أعدائه من بنى النجار، ويذكرهم وطأة إغارته عليهم في جمع من قومه الأشداء، ويستهزئ بهم معيلاً بأن قتالنا يحتاج إلى شجاعة واستعداد أكثر من أكل بسر التمر، أو التداوى بمشروب الحنظل، وفي ذلك يقول<sup>(٦٣)</sup>:

سقيناً بالفضاء كؤوس حنف  
لقيناهم بكل أخی حروب  
ومشرفة التلائل مضمرات  
أكنتم تحسبون قتال قومی  
إلى أن قال:

فإن ننفك نقتل ما حيينا  
رجالكم ونجعلكم عبيدا

ويرد الفارس عنتره على أعدائه الضعفاء، بازدرء وسخرية بأن أسلحتكم متهالكة صدئة، فهي عبارة عن أسلحة التقطت التقاطاً وهي رديئة، لم تشتروها فضلاً عن أن تكون من سلبكم لعدوكم، فكيف تتعدون أمثالي، فيقول<sup>(٦٤)</sup>:

قد أوعدونى بأرماح معلبة  
لم يسلبوها ولم يعطوا بها ثمناً  
سود لقطن من الحومان أخلاق<sup>(٦٥)</sup>  
أيدى النعام فلا أسقاهم الساقى<sup>(٦٦)</sup>

وفى هجاء مهين لبعض أعدائه من بنى شيبان، يصفهم: ببنى اللثام المصابين بالبرص فى مؤخراتهم، ويسخر بهم استخفافاً بأن تعرضهم لقتالنا ومواجهتنا بمثابة تعجلهم الموت، ولفارق القوة بينهم، جراء ضعفهم، كانوا فى مواجهتهم يتخيرون فى من لم يفر منهم بين القتل والأسر، فيقول<sup>(٦٧)</sup>:

عجلت بنو شيبان مدتهم  
كنا إذا نفر المطى بنا  
والبقع أستاها بنو لأ  
وبدا لنا أحواض ذى الرضم

(٦٣) ديوان قيس بن الخطيم، ت: ناصر الدين الأسد، (ص ٤٧).

(٦٤) تزيدياً: تزيدي اسم جد بنى سلمة.

(٦٥) عتيدياً: مهياً.

(٦٦) التلائل: الأعناق. التعداء: العدو. القود: الطوال العناق.

(٦٧) الفغايا: واحدة: الفغا، وهو غلط جلد بسر النخلة إذا ركب الغبار. الهبيد: شراب من حب الحنظل المنقوع المطبوخ.

(٦٨) شرح ديوان عنتره بن شداد، الخطيب التبريزي، (ص ١٠٧).

(٦٩) معلبة: اللعاب عصب فى العنق، أى أنها رماح شددت بعصب اللعاب بعد أن تكسرت. الحومان: موضع.

(٧٠) أيدى النعام: تشبيه لهم بالنعام فى خوفها لجبنهم، أو فى النقامها لكل شيء لسرقتهم.

(٧١) شرح ديوان عنتره بن شداد، الخطيب التبريزي، (ص ٤٦).

صور الآخر: (العدو) في شعر الفرسان في العصر الجاهلي

نختار بين القتل والغنم

نعدي فنطعن في أنوفهم

العدو الواشي المزدي:

يرصد لنا عمرو بن كلثوم، عدة مظاهر للعداوة والكراهية، كالوشاية من طرف عدو وتصديق آخر له وطاعته فيما ينمي إليه عن الشاعر وقبيلته، وما ترتب على ذلك من ازدياد وعداء، فيقول<sup>(٧٢)</sup>:

نكون لقيكم فيها قطينا<sup>(٧٣)</sup>

بأى مشيئة عمرو بن هند

تطيع بنا الوشاة وتزدرينا<sup>(٧٤)</sup>

بأى مشيئة عمرو بن هند

متى كنا لأمك مقتونيا<sup>(٧٥)</sup>

تهددنا وأوعدنا رويدا

ويحذر أبناء عمومته من الدخول في صف أعدائه بالوشاية وغيرها من أصناف التأليب أو الاعتداء عليه وعلى قومه، وينصحهم بالتحلي جانباً، وعدم المنافسة، بعدما عرفوه عنهم من المنعة وشدة البأس، فيقول<sup>(٧٦)</sup>:

ألمأ تعرفوا منا اليقيناً

إليكم يا بني بكر إليكم

كتائب يطعن ويرتمينا

ألمأ تعرفوا منا ومنكم

وقال عنتره يحذر ذا القرابة من مغبة عداوته، ويذكره بشجاعته، وجلده على الاستبسال في مطاردة عدوه والتهجم عليه، ناصحاً إياه أنه حري بك أن تغمض لك عين من محاذرتي<sup>(٧٧)</sup>:

شجاعاً لا يمل من الطراد

لقد عاديت با ابن العم ليثاً

بييض الهند والسمر الصعاد<sup>(٧٨)</sup>

يرد جوابه قولاً وفعلاً

ولا تملأ جفونك بالرقاد

فكن يا عمرو منه على حذار

صور العدو المطارد:

<sup>(٧٢)</sup> ديوان عمرو بن كلثوم، ت: د. إميل بديع يعقوب، (ص ٧٨)

<sup>(٧٣)</sup> القطين: العبيد الأذلاء.

<sup>(٧٤)</sup> تزدرينا: تحتقرنا

<sup>(٧٥)</sup> مقتونيا: المقتونون: الخدم.

<sup>(٧٦)</sup> ديوان عمرو بن كلثوم، ت: د. إميل بديع يعقوب، (ص ٨٤).

<sup>(٧٧)</sup> شرح ديوان عنتره بن شداد، الخطيب التبريزي، (ص ٥٨).

<sup>(٧٨)</sup> السمر: الرماح. الصعاد: جمع صعدة، وهي القناة المستوية.

يصور لنا الشاعر الصعلوك تأبط شراً، مطاردة أعداء - من بجيلة - له، وهو ممعن في الهرب بأذل جهده، وهم يلاحقونه بأسرع فرسانهم، فيقول<sup>(٧٩)</sup>:

نجوت منها نجائي من بجيلة إذ  
ألقىت ليلة خبت الرهط أرواقي<sup>(٨٠)</sup>  
لية صاحوا، وأغروا بي سراهم  
العيكيتين لدى معدى ابن راق<sup>(٨١)</sup>  
كأنما حثحثوا حصاً قوادمه  
أو أم خشف بذى شث وطباق<sup>(٨٢)</sup>  
لا شيء أسرع مني، ليس ذا عذر  
وذا جناح، بجنب الريد خفاق<sup>(٨٣)</sup>

#### الخاتمة

وهكذا نلاحظ بجلاء كيف أن الآخر العدو حظي بالنصيب الأوفر من التصوير في شعر الفرسان في العصر الجاهلي، وهذا يتناسب تماماً مع كونهم فرساناً، فميدان الحرب الذي هو الملتقى مع العدو، هو ميدان الفرسان الأبرز، والأكثر حظوة وحضوراً في حياته، ويأتي على رأس اهتماماتهم وأولوياتهم، خوفاً بالقول والفعل، ولذا كان وصفه وتصويره في مختلف أحواله سمة غالبية في شعر فرساننا مقارنة بغيره، وما هذه الأمثلة التي ذكرناها إلا نزولاً يسيراً في فيض حديثهم وتصويرهم له.

<sup>(٧٩)</sup> ديوان تأبط شراً وأخباره، ت: علي ذو الفقار، (ص ١٢٩).

<sup>(٨٠)</sup> الخبت: المخفض من الأرض، وألقىت أرواقي: استقرت جهدي.

<sup>(٨١)</sup> العيكيتين: موضع في ديار بجيلة.

<sup>(٨٢)</sup> حثحثوا: حثوا، أى جدوا. حصاً قوادمه: ظليماً قد تنثر ريشه. أم خشف: الظبية. سث وطباق: نبتتان مما ترعاه الطيباء.

<sup>(٨٣)</sup> العذر: جمع عذرة: الخصلة من الشعر يقبل على الوجه، وهي: العرف. والريد: قمة الجبل.

## صور الآخر: (العدو) في شعر الفرسان في العصر الجاهلي

### قائمة المراجع

- ١- الآخر حسب سارتر وظاهرية ميرلوبونتي: عبد الله عازرا، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٨٦ - ٨٧، ١٩٩١م.
- ٢- الآخر في القرآن، غالب حسن الشايندر، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ٢٠٠٥م.
- ٣- سعد سامي محمد، الأنا والآخر في المعلقات العشر، جامعة البصرة، كلية الآداب، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
- ٤- فاروق أحمد اسليم، الانتماء في الشعر الجاهلي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.
- ٥- أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف، (المتوفى: ١٤٢٦هـ)، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، ج ١، د.ت.
- ٦- أحمد ياسين السليمان، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ج ١، ٢٠٠٩م.
- ٧- فيصل شكري، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، ط ٤، د.ت.
- ٨- محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور، المتوفى سنة ٣٧٠هـ، تهذيب اللغة، المحقق، محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ج ٨، ٢٠٠١م.
- ٩- عبد الله بن محمد طاهر، ثنائية الأنا والآخر بين الصعاليك والمجتمع الجاهلي، مجلة التراث العربي، عدد ١٢٠ - ١٢١، ٢٠١١م.
- ١٠- علي مصطفى عشا، جدل العصبية القبلية والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، ج ٣، مجلد ٨٣.
- ١١- محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، ط ٢، ج ١.
- ١٢- ميجان بن حسين الرويلي، سعد بن عبد الرحمن البارغي، دليل الناقد الأدبي، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ١٣- مؤيد محمد صالح البيوزبكي، الرؤية للذات والآخر في معلقة عمرو بن كلثوم، آداب الرافدين، عدد ٥٦، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- ١٤- حمدي منصور، السببية في الشعر الجاهلي، الجامعة الأردنية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مجلد ٢٤، ٢٠١٠م.
- ١٥- محمد بن إسحاق بن يسار المطلبلي بالولاء، سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ج ١، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ١٦- الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة بن شداد، ت: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٢م.
- ١٧- علي الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، دار العلوم، جامعة القاهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.
- ١٨- كجكز
- ١٩- محمود حسن أبو ناجي، شعراء العرب الفرسان في الجاهلية وصدور الإسلام، مؤسسة علوم القرآن، دمشق - بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ٢٠- بطرس البستاني، الشعراء الفرسان، ط ٣، دار نظير عبود، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.
- ٢١- محمد الخبار، صورة الآخر في شعر المتنبي، ج ١، ١٩٩٥م.
- ٢٢- الفروسية لشمس الدين أبي عبد الله ابن قيم الجوزية، تحقيق عبدة مشهور، ط ٢، دار الأندلس، ١٤١٧هـ.